الْأَبْعَادُ التَّعْلِيميَّةُ والتّرْبويّةُ للمُعْجَمِ التَّارِيـخِيِّ

نَحْوَ تَقْرِيبٍ بيداغُوجيٍّ لتاريخِ العربيّةِ

ظلَّ المُعجمُ التّاريخيُّ للّغة العربيّة -على مرِّ عُقود منَ الزّمن- حُلمًا منشودًا لدى كثيرٍ منَ النُّخب المُثقّفة في الوطن العربيّ، خاصةً علماء اللّسانيّات منهم، إلى أن أصبحَ حقيقةً علميّةً على أرض الواقع بعد الإعلان الرّسميِّ عنْ إطلاق سبعةَ عشرَ مجلّدًا من هذا المشروع العلميّ في تشرين الثّاني من عام 2021 برعاية صاحبِ السّموِّ الشّيخ الدّكتور سُلْطَانَ بْن مُحَمَّدٍ القاسميّ، وقد تُوِّجت المرحلة الثّانية بإنجاز تسعة عشر مجلّدًا ليصل إجماليُّ ما أُنجزَ منه ستّةً وثلاثين مجلَّدًا.

وقد شكّلَ هذا الحدثُ علامةً فارقةً في تاريخِ اللّغةِ العربيّة؛ إذ أصبح لها مُعجمُها التّاريخيُّ مثلَ نظيراتها منّ اللّغات الأوروبيّة، هذا المُعجمُ الذي يَروي تاريخَ الحضارة العربيّة من خلال سيرةِ ألفاظها منذ نشأتها إلى اليوم اعتمادًا على مصادرَ متنوّعةٍ ومُوثّقةٍ، مثلِ القرآن الكريم، والنّقوشِ، والبَرْدِياتِ، والقصائدِ القديمةِ، ونصوصِ الرّحلات...،



حميد الكتاني [1]
باحث دكتوراه-جامعة ابن طفيل/ المغرب

واستحضارًا للمعاني الحضاريّةِ التي يحملُها هذا المشروعُ العلميُّ المتميّزُ، واستثمارًا لهذا المُنجزِ اللّسانيِّ الرّصين، ولتقريبه منَ النّاشئة المُتعَلّمَة، تأتي هذه المقالةُ لتسلّطَ الضّوءَ على الأبعادِ التّعليميّةِ والتّربويّةِ لهذا المُعجم، والتي نعُدُّها مدخلًا لجعْلِ محتوى المُعجم التّاريخيِّ مُكوِّنًا من مُكوّنات تعْليميّةِ اللّغة العربيّةِ في المدارس العربيّةِ. ولتحقيقِ هذا الهدف، نقترحُ مدخلَيْن، الأوّل: تعليميٌّ وظيفيٌّ. والثّاني: تربويٌّ هوياتيٌّ.

أولا: المدخلُ التّعليميُّ الوظيفيُّ:

تؤكّدُ الدّراساتُ اللّسانيّةُ التّعليميّةُ أنّ تعليمَ اللّغة العربيّةِ يقومُ على أربعِ كفاياتٍ: الكِفَايةُ النّحويةُ وهي تعلُّمُ قواعدِ اللغة، والكفايةُ القِرائيّةُ وهي القدرةُ على القراءة بِطلاقةٍ، والكفايةُ المُعْجميّةُ، وهي القدرةُ على التّمييزِ بين دلالاتِ الألفاظ وخصائصِها الوظيفيّةِ «فعل، اسم، حرف» وسياقِ توظيفها، ثمّ الكِفَايةُ التّعبيريّةُ، وهي القدرةُ على التّعبير كِتابيًّا وشفهيًّا



[2]؛ إذ تُعدُّ الكِفَايَاتُ الثَّلاثُ الأُولى مدخلًا تعليميًّا لتحقيق الكفايةِ التّعبيريّةِ باللّغة التي يتعلّمُها الطّفلُ في المدرسة؛ لأنّ «الهدفَ من تعليم أيةِ لُغة هو تمكينُه من مبادئ التّعبير الفصيحِ والسّليم» [3]. فإذا كان تحقيقُ الكفايةِ التعبيريّةِ لا يتمُّ إلاّ عبرَ بناءِ كفايةٍ مُعجميّةٍ تتمثّلُ في الرّصيدِ اللُّغويِّ الأساسيِّ الذي ينطلقُ منه الطفلُ/المتعلّمُ للتّعبيرِ عن احتياجاتِه، فإنّ السّؤالَ الذي يُطرحُ في هذا السّياق: ما نوعيّةُ الرّصيد المُعجميِّ الذي يُوَجَّه للمُتعلّم من خلال النّصوص القِرائيّة؟ إنّ الإجابة عن هذا السّؤال تحتاجُ إلى دراسةٍ أكاديميّةٍ مُوسّعةٍ، لكنّنا سنحاولُ تقريبَ الإجابة عنها، من خلال المُقترح الآتِي.

إنّ الرّصيدَ الذي يَسْتقيه المتعلّمُ منّ النّصوص القِرائيّةِ الوظيفيّةِ في الصّفِّ الدّراسيِّ ليس كافيًا لتحقيق الكفايةِ المُعجميّةِ متكاملةً كَمًّا وكَيْفًا [4]؛ لأنّ مفرداتِ اللّغة التي يكتسبُها المتعلّمُ من نصوصِ القراءةِ الصّفّيّةِ تُقدّمُ له من خلال شرحِها وبيانِ معناها، وفي أفضل الأحوالِ يُشار إلى سماتِها الوظيفيّةِ وخصائصِها الصّرفيّةِ «اسم، فعل، حرف، مفرد، جمع» وهذا المحتوى المُعجميُّ ليس كافيًا بالنّسبة للمتعلّمين المُتعطّشين إلى التّعرّفِ على أصل المُفردة، ومعانِيها التي ارتبطت بها عبْرَ مسارِها التّاريخيِّ الذي سَلَكَتْهُ، والقيمِ الثّقافيّةِ والتّربويّةِ التي تحملُها، وسدًّا لهذه الثّغرة التّعلّميّةِ

في الرّصيد المُعجميّ المُوجَّه للمُتعلّمين، نقترحُ محتوى المُعجم التّاريخيّ باعتباره مُكمّلًا للمُعجم المدرسيّ، وذلكَ إغناءً للرّصيد المُعجميّ الذي يكتسبُه المتعلّمون في نهاية الفصل الدّراسيّ، وتَقْريبًا بيداغوجيًّا وتربويًّا لهذا المشروع العلميّ المتميّز، ويمكنُ أن يتحقّق ذلك من خلال المدخلِ التّعليميِّ الوظيفيِّ للمُعجم عبْرَ الخطوات الآتية:

الخطوةُ الأولى: تقديمُ المُفردة مُجرّدةً من سياقِها النّصّي

الخطوةُ الثّانيةُ: تحديدُ سماتِها الوظيفيّةِ، اسمٌ أم فعلٌ أم حرفٌ.

الخطوةُ الثّالثةُ: شرحُ معناها اللّغويّ

الخطوةُ الرّابعةُ: تقديمُ لمحةٍ مختصرةٍ عن تاريخ الكلمة وسياقِ استعمالِها.

تشكّل هذه الخطواتُ لَبِنَةً أولى لإدخال المُنجزِ المُعجميِّ التّاريخيِّ في صُلبِ العمليّةِ التّعليميّةِ التّعلُّميَّة، والتي ستمكّنُ الطلاّبَ منَ الإحاطة المُعجميةِ بالمفردات التي يتعلّمونَها من جميع النّواحي الصّوتيّةِ والصّرفيّةِ والدّلاليّةِ والتّاريخيّةِ، وتمثيلًا لهذه الخطوات، نستحضرُ ما أَوْرَدَهُ المُعجمُ التّاريخيُّ بخصوص مُفردةِ «برْنامج» التي لا يعرفُ عنها التّلاميذُ إلاّ معنًى واحدًا هو المعنى المعاصرُ، أي: «حلقةٌ من البثّ التّلفزيُوني أو الإذاعي» بينما أحصَى لها المُعجمُ التّاريخيُّ عدّةَ معانٍ، بعد أن حدّدَ سِمَتَها الوظيفيّةَ بأنّها «اسمٌ» وحدّدَ أصلَها اللُّغويَّ بأنها كلمةٌ «مُعرّبَةٌ عنِ اللّغة الفارسية» ثم سرد معانيَها الكثيرةَ، ومنها «أنَّ البرنامجَ: الدّفترُ المُبيّنُ صفةَ ما في الوعاءِ منَ الثياب المَبيعَةِ ونحوِها، ومنها: أنّه الخطّةُ المرسومةُ لتحقيق أهدافٍ مُعيّنةٍ، ومنها: أنهُ المُقرّرُ الدّراسيُّ...»[5] ويقدّمُ هذه المعانيَ مُفصّلةً حسب تسلْسُلِها التّاريخيِّ



منذ القِدَم إلى عصرنا الحالي. وهذا بخلافِ ما هو كائنٌ اليومَ؛ حيث تقتصرُ المعرفةُ المُعجميّةُ المدرسيّةُ على الجوانب الدّلاليةِ فقط، أمّا الجوانبُ الأخرى فغيرُ موجودةٍ، خصوصًا الجانبَ التاريخيَّ منها.

إنّ الخطواتِ التّعليميّةَ التي قدّمناها سابقًا – على قيمتِها– لا تكفي وحدَها لِنَقْلِ مُحتوى المُعجم التّاريخيِّ إلى مناهجِ اللّغة العربيّةِ في الصّفوف المدرسيّةِ، ومن ثَمَّ فإنّ تحقيقَ ذلك المَسعى التّربويِّ بشكلٍ كاملٍ، رهينٌ بإثارة الاجتهادِ في ميدان الصّناعةِ المُعْجَميّةِ المَدْرسيّةِ التي «تنطوي على العديدِ منَ الاختلالات ذاتِ الصّلةِ بالشّروح المساعِدةِ المُتضمّنةِ في الكُتب المدرسيّةِ التي تُركّزُ فقط على الشّرح في غيابٍ تامٍّ لكلّ تجديدٍ في مداخل المُعجم»[6].

ليستِ اللّغةُ مجرّدَ متنٍ جامدٍ منَ المفرداتِ، وإنّما هي عالَمٌ حيٌّ يَحكي تجربةَ قومٍ بثّوا فيها خُلاصةَ تجاربِهم

ولتجاوُزِ تلك الاختلالات يمكنُ الانطلاقُ منَ الثّروة اللّغويةِ التي يحتوي عليها المُعجمُ التّاريخيُّ وتقديمُها إلى المتعلّمين على شكْلَيْنِ، الأوّل: مُعجمٌ مدرسيٌّ تاريخيٌّ مُوسَّع ومُستقلّ. والثاني: ثَبَتٌ مُعْجَميٌّ يُوضعُ في مُلحقِ آخرَ الكتاب المدرسيّ، ويكونُ مقتصرًا فقط على المفردات التي وردت في ذلك الكتاب.

يُمكّنُنا الشّكْلُ الأوّلُ، منَ الانتقال من قاموسٍ



مدرسيٍّ يكتفي بالشّرح فقط، إلى مُعجم مدرسيٍّ غنيٍّ يُنمِّي الكفايةَ المُعجميّةَ للمتعلّمين من حيث الكمُّ والكَيْفُ؛ لأنّه يعتمدُ مداخلَ متعدّدةً على رأسها المدخلُ التّاريخيُّ، وبهذا تصبحُ اللّغةُ التي يَبحثُ عنها المتعلّمُ في هذا المُعجم، معروفةَ المصدرِ والبيئةِ التي نشأت فيها، والسياقاتِ التي استُعملت فيها، والمعاني التي ارتبطتْ بها. أمّا الشّكل الثّاني، فيمكنُ تحقيقُه من خلال مُعجم تاريخيٍّ مُصغَّرٍ عبارةٍ عن ثَبَتٍ مُعجميٍّ يُوضعُ مُلحقاً في آخر الكتاب المدرسيّ، يشتملُ على قائمةٍ منَ العبارات والمُفردات التي وردت في نصوص المنهاج، ويشرحُها شرحًا تاريخيًّا. ولهذا الثّبَت المُعجميّ فائدتان تعليميّتان، الفائدةُ الأولى تكمنُ في بناءِ رصيدٍ مُعجميٍّ متكاملٍ في نهاية كلِّ موسم دراسيٍّ. أمّا الفائدةُ الثّانية، فتتجلّى في سُهولة التّحكُّمِ في الثّبَت المُعجميِّ المُلحَقِ؛ حيث يمكنُ أن نضيفَ إليه ما جَدَّ من مُفردات أو مصطلحاتٍ في اللّغة العربيّةِ المعاصرة، ويمكنُ تحويلُه إلى تطبيقاتٍ رقميّةٍ تعليميةٍ يستعملُها المتعلّمون في الوقت الذي يريدون، وهذا يجعلُ المتعلّمين يكتسبون لغةً حيّةً ومتزامنةً مع واقعِهم اللّغويِّ، ومُستمَدّةً من تاريخِهم، وهذه السّمةُ توجدُ حصْرًا في المُعجم التّاريخيِّ.

ثانيا: المدخلُ التّربويُّ الهُوِياتِيّ:

ليستِ اللّغةُ مجرّدَ متنٍ جامدٍ منَ المفردات، وإنّما هي عالَمٌ حيٌّ يَحكي تجربةَ قومٍ بثّوا فيها خُلاصةَ تجاربِهم، وعُصَارةَ عواطفِهم، ودَوّنوا فيها رُؤاهم الفكريّةَ المتنوّعةَ، وتأمّلاتِهم في الكون والمخلوقات، ولعلَّ اللّغةَ العربيّةَ خيرُ ما يُمثّلُ ذلك الحضورَ الثّقافيَّ والهُوِيَاتِيَّ في نَسَقِها «صرفًا ونَحْوًا ومُعْجَمًا ودلالةً»؛ إذ تميّزت بمُرونتها اللّغويّةِ، وبانفتاحِها على مختلف الثّقافاتِ التي تجاورت معها جُغرافيًّا واقتصاديًّا، وبقُدرتِها على الانفتاح نقلتْ